الفِكرُ الفلسفي في شِعر الصَّحابة– دِراسةٌ في ضَوءِ نظريَّةِ الحِجَاج التداولية

Philosophical thought in the poetry of the Companions - a study in the light of the theory of arguments

Dr. Sami Shihab Ahmed **د. سامي شهاب أحمد**

professor **أستاذ**

University of Kirkuk **جامعة كركوك**

sami_samiahmd@yahoo.com

الكلمات المفتاحية: الحجاج، التداولية، الفكر، الفلسفة، الشعر

Keywords: Pilgrimage, pragmatics, thought, philosophy, poetry

الملخص

إنَّ الأدبَ ولاسيما الشِّعر أرضٌ خَصبةٌ للعُلومِ والمَعارف ؛ وهو شمُوليٌّ بآفاقهِ وتصوُّراتهِ لأنَّه يَستلهمُ القضايا والمَوضُوعات التي تُناسب هُويتهُ ويعملُ على تطويعها بطُرقٍ مُغايرةٍ للإفادةِ منها وجعلها مَدارَ عِنايته؛ لذا فهو صِنونٌ لا يفترق عن الفلسفةِ بأبعادِها المُختلفةِ يُؤثرُ فيها وتُؤثرُ فيه بمقدارِ الإدراكِ المُتوافرِ والمُراد ؛ فيأخذُ مِنها المفاهيمَ العامة والقضايا الشَّامِلة ويبتعدُ عن التخْصيصِ والثَّقاناتِ والبراهين التي هي مَدارُ عَملها الأساس ، وعلى الرَّغمِ مِن الحذَرِ الشَّديدِ في التَّعامُلِ والاندماجِ تبقى المَسافةُ قريبةً بينهما ؛ مِمَّا يُولِّدُ ذلك نَمطاً من الأفكارِ المُستجدَّةِ التي تجمعُ بين الأحاسيسِ والضَّوابط ؛ وهذا ما يجعلُ مَنظومةَ النَّقدِ مِفْتاحاً ناجحاً لسبْرِ أغوار التَّلاقُحِ بينهما لكشفِ مَكنونات الثورةِ المَعلوماتيَّةِ الناشئةِ من التقائهما ، ولقِيمةِ هذه الخصِّيصةُ إرتأينا دراسةَ الفكرَ الفلسفيّ في شِعر الصَّحابةِ بالإستنادِ إلى نظريَّةِ الحِجاجِ التَّداوليَّةِ التي سَنكشفُ مِن خِلالها عُمقَ ذلك الفِكر وملامح تكوينهُ على وُفقِ ضَوابط الحِججِ التي تعملُ بطاقتِها التَّصحيحيَّةِ لتغيير المَعارف المُستوطنةِ في ذِهنيَّةِ المُتلقي ، وبحسبِ هذا المسار جاءتْ خُطةُ البحثِ على النَّحو الآتي :

التَّمهِيدُ : تداوليَّةُ الحِجَاج : وفيهِ تحدَّثنا عن قوةِ الحِجاجِ في تصحيح الأفكار وترميمها والإفادة منها بطُرقِ المُناورةِ والتَّوجيه .

المِحورُ الأول : حِجَاجُ التَّبرير : سلَّطنا فيه الضوءَ على حِجاجِ المُقدِّماتِ والمُسوِّغات ، وحِجاج مُراعاةِ المَقاماتِ والأحوال ، وحِجاج السُّلطة ، وبيَّنا دورَها في عرضِ الفِكرِ الفلسفيِّ لدى الصَّحابة ؛ ونجاحَها في إحداثِ التَّغييراتِ المَنشودة .

المِحورُ الثاني : حِجَاجُ الإستشهاد : وفيه تحدَّثنا عن حِجاجِ الاستشهادِ بالقُرآنِ الكريم والاستشهادِ بالمُثلِ والعَادات ، وبيَّنا دورهما في تشكيلِ المَفاهيم وتنْقِيتها مِن الزَّوائد .

وخِتاماً نسألهُ تعالى السَّدادَ فيما قَصدنا إليه مِن حيث التَّنوير بالمَعارفِ والأساليب .

Abstract

Literature, especially poetry, is a fertile land for science and knowledge, and it is holistic by its horizons and perceptions, as it is inspired by issues and topics that fit its identity and works to adapt it in different ways to benefit from it and make it the center of its care. So, it is a title that does not separate from philosophy in its various dimensions and affects. It is influenced by the amount of awareness available and desired. It takes from them general concepts and cross-cutting issues and moves away from the allocation, techniques and proofs that are the basis of its basic work. Despite the great caution in dealing and integration, the distance remains close between them, which generates a pattern of new ideas that combine feelings and controls. Also, we decided to study the value of this property of the philosophical thought in the poetry of the companions based on the theory of deliberative arguments, through which we will reveal the depth of thought and that the features of its composition to change the knowledge of the settlement in the minds of the recipient, according to this the research plan is the following:

Introduction: The deliberation of arguments: We talked about it in the power of arguments to correct ideas, restore and benefit from them through maneuvering and direction methods.

The first chapter: The arguments of justification: We have shed light on the arguments of the premises, taking into account the conditions, shrines and power, and we have explained its role in presenting the philosophical thought of the Companions.

The second chapter: The arguments of proof: in which we talked about the arguments of proof in the Holy Qur'an and the citation of proverbs and customs, and we explained their role in forming concepts and refining them from additions.

التَّمهِيدُ

تداوليَّةُ الحِجاج

لا يُمثل الحِجَاجُ نقطة تحوُّل عابرةٍ في تشكيل الخِطابات المُتنوِّعة ؛ بل هو رافدٌ أساسٌ في ارتهاناتِ التنظيمِ وتنسيقِ الأبعاد الدلاليَّةِ على وفق مَنظور صاحِبها والفلسفة المُتبنَّاة ، وبذلك فإنَّ وجودهُ يزيد من حركيَّةِ الفاعليَّةِ الفكريَّةِ ويجعلها خاضعةً لقواعد التحديدِ والمَساراتِ المُتناوبةِ التي مُهمَّتها إحداث التَّغييرات المَطلوبةِ في ذهنيَّة المُتلقي لتقبُّل هذه الفكرة وتلك بحسب ما هو مرسومٌ لها ، أي أنَّ الحِجَاجَ مُتشعِّبُ الانتماءات فتجدهُ في الخِطاباتِ الفلسفيَّةِ والأدبيَّةِ والإجتماعيَّةِ والدينيَّةِ وهلمَّ جَراً ، ولتعدُّد هذه الشُّعب تأتي الحصيلةُ مُتَّشحةً بالفائدة للمُستهدَف الأول وهو المُتلقي ، ولتحقيق هذا المُبتغى لا يكتفي الحِجاجُ بآلية حشدِ المعلوماتِ الضَّاغطةِ لاستمالةِ العُقول التوَّاقة للمعرفة والإستزادة ؛ بل يعملُ على مُراعاةِ الحال المَقامي للمُستهدَف ليستطيع التوغل في كَينونة الجذُور البانيةِ لثقافته ، فليستِ المُهمَّةُ مَحصورةً بطريقةِ تقديم الحُجج والبراهين بقدرِ ما هي مُهمَّةٌ مُنظمةٌ على وفقِ مَنظور الترتيب وايجادِ التوازن الذي يسمحُ بمعرفةِ المُتطلباتِ ومُحاولةِ تلبيتها ، وهذا لا يتأتَّى إلاَّ بعد مَعرفة خصوصيَّة أحوال الذين يَحتاجون إلى الحُجَجِ في هذا الموضوع أو ذاك ، بُغية الوصولِ إلى نتيجةٍ سليمةٍ ومُؤثرة ، وفي ضوءِ هذه الخصوصيَّة نجد أنَّ الحِجَاجَ " يستمدُّ خصائصهُ مِن الحياةِ اليوميَّةِ للناسِ وقِيمِهم والتَّواصل بينهم ، فكلُّ خِطابٍ يصبحُ بهذا المعنى كامناً داخل اللُّغة ، حيثُ تمنحهُ اللُّغة / الحياة العناصر الأوليَّة لكُلِّ مضامينه، أي عناصر الإستدلالِ والتدليل " (البستاني ، بشرى – ٢٠١٢– ٢٤٣) ، وبحسب ازدواجيَّة طلب المَعلومةِ الدقيقةِ واللُّغةِ الناقلةِ لها تبرزُ أهميَّة الحِجاج من خلال تحفيزِ النشاطِ الذِّهني بسلسلةٍ من الحُججِ المُختلفةِ للوصول إلى نُقطةِ التَّماسِ التي تُحقِّق للفعل الإنجازيِّ التداوليِّ هُويتهُ في التغييرِ والتأثير ، ويتم ذلك عبر بثِّ حُججٍ تُعزِّز من رصيد المُتلقي في موضوعٍ ما ويتفاعل معها وتُحقِّقُ لهُ مُبتغاهُ في التنوير والإستبصارِ من جهة ، أو تقديم حُجَجٍ مُناهضةٍ لرؤيته والسَّعي لدحضِ توجُّهاتها من أجلِ السيطرةِ والتمكُن والإنزياح عن بُؤرِ أُحاديَّةِ التوجُّه والميل نحو التشظي الصانع للتعدُّد والمفاهيم المُتراكمةِ من جهةٍ ثانية ، وفي إطارِ هذا الرَّصد تتبنَّى التداوليَّةُ الحِجاجَ بقوة وترى فيه " فاعليَّة لفظيَّة واجتماعيَّة للعقل ترمي إلى مُضاعفة قبول وجهةِ نظرٍ مُخالفةٍ في نظر السَّامع أو القارىء أو تقليصها ، وذلك من خلال تقديم جُملةٍ من الإقتراحات تُستعمل في البرهنةِ على نقضِ وُجهة نظر الآخر . " (الشعبان ، علي – ٢٠٠٨– ١٨) . ولكي تنشطَ هذه الفاعليَّةُ يتبنَّى الحِجاجُ مجموعةَ خصائص تعملُ على ديمومةِ الإتجاهاتِ الفكريَّةِ والفلسفيَّةِ المَبثوثةِ في النَّص ، وأهمَّها وحدةُ الإنسجامِ والتراتب المنطقي القائم على الإنتقالِ المَدروسِ في السُّلَّم الحِجاجي ، أي السيطرة على مُقدمةِ البدء بوضعِ الحُجَّة وعرضها والمُراهنةِ عليها

وصولاً إلى الخاتمةِ التي تخرجُ بنتائج داعمة لما تمَّ الإبتداء به ؛ لتشكيل صياغةٍ مُتكاملةٍ فيها النضوجُ والمُحتوى القَضوي . وكذلك الإتكاء على عنصر التوجيه المُباشر بُغية استحصال نتائج مُرتكزة على العقلِ والمنطقِ مُهمَّتها تغيير المفاهيم وتأطير السُّلوكيات بحُزمةٍ من المُستجداتِ التي كانتِ غائبةً عن ذهنيَّةِ المُتلقي ، كما لا يُمكن تجاهل الموضوعيَّةِ والحيادِ الكامل الذي يجب أنْ يتمتعَ به صاحبُ الخِطاب الذي يُريد إيصالَ فِكرتهِ إلى الآخرين بأيسرِ الطُّرقِ وأفضلها للتقبُّل ، ويتأتَّى ذلك من خلال عرض حُزمة الحقائق والمُقاربات الفكريَّةِ والعلميَّة التي تُلامس ثقافة المُتلقي الرَّاغب بالمزيدِ منها لتدارُك المفاهيم المَغلوطةِ أو الساذجةِ التي تبنَّاه في وقتٍ سَابق ؛ وبفضلِ هذا التنسيق المُتكامل تتشكَّلُ في النهايةِ الرؤيةُ الكاملةُ التي جاء من أجلها الحِجاجُ وهو بناءُ أنظمة رصينة من المُثل والقيم التي تعمل على زيادةِ الوعي بالثقافاتِ المُتعدِّدة وأهميَّة الأخذِ منها والإستعانة بتقاناتها للوصول إلى مَراتب عُليا من التنويرِ الفكريِّ والنَّهضةِ المَعرفيَّةِ الصحيحة ، أي إنَّ الحِجَاجَ بوساطة مُمارسة ضغطه المُتواصل وحشدهِ للحُججِ في النصوص يكون بانياً لمَنظومةٍ مُغايرةٍ لتلك المَنظوماتِ التي اتكأتْ على أُحاديَّةِ الأخذِ والأُطر المَحدودة ، منظومةٌ تُحفِّز الرَّاغبين بالتطويرِ لبلوغ التعامل الجاد مع كُلِّ الحُجج التي تهدفُ إلى زيادةِ المعلوماتِ وتحسين الأداء الفكري لديهم ؛ بما يتناسبُ وحَجم الفلسفاتِ والتَّياراتِ المُختلفة .

ولأهميَّةِ الحِجاج – كما أسْلفنا – فإنَّنا سنُسلطُ الضوءَ على شِعرِ الصَّحابةِ الكِرامِ من مِحورينِ مُهمَّين هما :

١ – حِجَاجُ التبرير . ٢ – حِجَاجُ الاستشهاد .

المِحورُ الأول : حِجَاجُ التَّبرِير

يعتمدُ صاحبُ الخِطاب ولاسيما الشعري منه على جُملةٍ من الحُججِ المَضغوطةِ لإيصالِ فِكرتهِ وتحقيق مُبتغاه على النحوِ الذي يَرتضيه ، فالنصُّ الشعريُّ على سبيلِ المِثال لا تُستحسنُ فيه المُباشرة والسَّطحيَّة ، كما لا يُستحسنُ فيه كذلك الغموضُ والرموزُ المُتشظِّية ، ولكن يُستحسنُ فيه الإيهامُ والألغازُ والإشاراتُ والإيماءاتُ وغيرها ، هذه المُراوغات في تضليل المعنى على المُتلقي لجعلهِ مُتعلقاً بالنَّص ومُحاولة فك شَفراته والإستمتاع به ، تتطلَّبُ مُساعدات مَقصودة من صَاحب النَّص يفرضها بوسَاطة حُجَجِه ومُبرِّراته ومُسوِّغاته التي يُريدها حاضرةً للإثارةِ وجَلب الإنتباه ثم أخيراً التأثير والإقناع ، فالتفرُّد المقصود بعرضِ المُبرِّرات يعني انتماء النَّص إلى بُؤرةٍ مُختزلةٍ ولكنَّها فعَّالةٌ في تدوير المَوضوعات والأفكارِ في رَحى المُساءلةِ والنظرةِ الفاحِصةِ للوصول إلى مَغانم جديدة كانتْ غائبةً عن الوعي ، وهذا يعني أنَّ الأُطر الحِجاجيَّة تبحثُ " عن آلياتِ الإقتناع لإنجازِ الفعل المقصود ، وهذا كلَّه لا يستغني عن مجالِ التواصُلِ وإطاره . " (البستاني ، بشرى –٢٠١٢– ٢٤٢) . أي إذا أردنا الوصولَ إلى وحدةِ الفعلِ الإنجازيِّ وجعل الاقتناع سِمة بارزة فيه ؛ فإنَّه يترتَّب على ذلك الدُّخول في ميدان التواصُل وتشعُّباته للتوغل أكثر وأكثر في السُّلَّم الحِجاجِي الذي يقضي بأهميَّةِ ترتيب المَعلوماتِ بصورةٍ مُتدرجةٍ لإحداثِ الأثرِ المَنشودِ في المُتلقي ، وجعله مُقتنعاً بالمدْخلات لتأسيس المُخْرجات التي يتطلَّبها بحسب امكاناتهِ وثقافتهِ الفلسفيَّةِ والفِكريَّة . وعلى صعيدِ هذا المُحتوى رَصدنا جُملةَ الحِجاجات المَقصودة في شِعر الصَّحابةِ الكِرام والتي توزَّعتْ بين المُقدِّمات والمُسوِّغات الإقناعيَّة ، والحِجاجات التي راعتْ المَقامات ومُقْتضى الحال ، فَضلاً عن تلك التي ترتدي رداءَ حِجاج السُّلطة ؛ وهي حِجاجاتٌ تتدرجُ كُلّها ضِمن حِجاج التَّبْرير .

ففي إطارِ تقديم المُسوِّغ المقصود والمُقدِّمة المُنتقاةِ لغرض الوصُول إلى الإقناعِ والتأثيرِ في المُقابل تتضحُ لنا مَسألةُ التَّعالق بين قُطبي الخِطاب من زاويةِ الإقناع والاقتناع " فالإقناعُ هو المَطلبُ الأساسيُّ من الخِطابات ؛ كما يتجسَّدُ التواصل كذلك من خلال الفعلِ وردِّ الفعلِ فلا اقتناع دون إقناع . " (حمدان ، سليم – ٢٠٠٩ – ٩٣). وفي ضوءِ هذه الخاصيَّة يُطالعنا الشاعرُ عبد الله بنْ رواحة بأبياتٍ تفوحُ منها رائحةُ الفلسفةِ الدينيَّةِ الذاتيَّةِ المُعمَّقةِ والعَارفةِ بوحدانيَّةِ الله سبحانهُ وتعالى ؛ وفيها يقول (رواحة ، عبد الله – ١٩٨٢ – ١٦٥):

شَهِـدْتُ بِأَنَّ وَعْـدَ اللّـهِ حَـقٌّ وأَنَّ النارَ مَثْوَى الكافِرِينـا
وأَنَّ العَرْشَ فَوْقَ الماءِ طافٍ وفوقَ العَرْشِ رَبُّ العالَمِينـا
وتَـحْمِـلُـه مـلائـكـةٌ كِـرامُ مـلائـكـةُ الإلَـهِ مُـقـرَّبـيْـنَـا

يتراءى لنا في هذهِ الأبيات أنَّ الإستدلالَ الحِجاجيَّ مُتجذِّرٌ في خِطابِ الشاعرِ الفلسفي ، ويتمثلُ ذلك بسيطرةِ الأنا على ذاتها وتحصينها والتمكُّن منها في مجالِ المُعتقدِ الدينيِّ القائمِ على نزعةِ الإيمانِ المُطلقِ بالله تعالى ؛ ثم مُحاولة الإنسلاخِ من عباءةِ الأُحاديَّةِ والتوجُّه نحو الآخر الذي يحتاجُ إلى الحِجَجِ الكافيةِ لإقناعهِ بالفلسفةِ التي تبنَّتها الأنا ، فالشاعرُ هنا في صِراعِ الإفصاحِ عن هُويتهِ واقناع الآخر بمُحتواها ، مِمَّا يترتبُ عليه استكناه الطُّرق الفعَّالةِ الخاصةِ بعرض الحُججِ المُوصلةِ لمُبتغاهُ وهكذا " يَصحُّ الكلامُ والإيصال ، وينتجُ عنه تواصلاً بين المُتكلِّمِ والمُخاطَب عندما يُقيم المُتكلِّمُ المعنى في نفسه ، ويُحدِّدُ الغرضَ الذي يُقال فيه والمَقام الذي يجب له " (حمدان ، سليم – ٢٠٠٩ – ٩٨) ، لذا فقد بدأ بالفعلِ الدَّالِ على فلسفتهِ المُتكاملةِ في استهلالِ مُقطَّعتهِ (شَهِدْتُ) لإعلان الإعتراف واليقين بوجود الذات الإلهيَّة التي آمن مُنقاداً بوعدها ، ولكي لا يدخل في تفاصيل الأنا التي أيقنتْ واتَّبعتْ انتقل مُباشرةً لِعرض مُسلَّمات خَلاصه والآخر كذلك إذا ما آمن بالحُججِ الكفيلةِ لنجاته ، وعليه نراهُ قد إبتدأ من التحذير لإثارةِ انتباه الآخر الغافل عن حقيقةِ الوجود ، وهي هُنا تتمثلُ بأنَّ النَّارَ مُوقدةٌ لأولئك الذين يَكفُرون بمُعتقد الوحدانيَّة ، وانْشطرتْ هذه الحُجَّة على ثُنائيَّةٍ مُتنافرةٍ إحداها مُعلنةٌ وأُخرى غير مُعلنة هي نتيجةٌ حَتميَّةٌ لوجود الأُولى ، ويُمكن ايضاحها على النحوِ الآتي :

عِبادةُ اللهِ تعالى ـــــــــــــــــــ النَّجاةُ مِن النَّار

مَعصيةُ اللهِ تعالى ـــــــــــــــــــ الهـلاكُ في النَّار

ولكي تُحقِّقَ هذه الثُّنائيَّة ارتهانات امتحان الذات لسطْوتها وقُدرتها على التأثير ، ينبغي تعزيز أرصدةَ الحُججِ بما تتلائمُ وعقلية الآخر ، فسببُ العصيان ونتيجتهُ النَّار غير كافية لتغيير المَفاهيم في مَنظومةٍ مُتهرِّأة المَقاصد ، لذا لجأ الشاعرُ إلى استدلالٍ أقوى تموضعَ في خندقِ إعلاء شأن الذات الإلهيَّة عبر ركيزةِ سُلطتها وحكمها المُطلق ، وهي ركيزةُ العَرش الفوقي الذي تتضحُ أركانهُ بالطبقيَّةِ والسيطرة ؛ ولكي تُحقِّق السَّلَّة الفلسفيَّة مُستلزمات اكتمالها ينبغي لها تبني الرَّوابط الحِجاجيَّة الكفيلة بانجاح مُهمَّتها ؛ فلا حِجاج من دون روابط تجعلُ الحُججَ في دائرةٍ مُغلقةٍ ومُوجَّهة ، وعليه احتوى النَّص على ثلاثةِ روابط لُغويَّة لإكمال مَقاصد السُّلَّم الحِجاجي وهي (إنَّ ، الواو ، تِكرارُ المُفردة) وكالآتي :

الذَّاتُ الإلهيَّة ـــــــ مُخالفتها(النتيجةُ) ـــــــ (وأَنَّ النارَ مَثْوَى الكافِرينا)

سِمة الذَّات الإلهيَّة ـــــ صِفتها ـــــــــــــ وأَنَّ العَرْشَ فوْقَ الماءِ

وفوقَ العَرْشِ رَبُّ العالَمِينا

وتَـحْمِـلُـه مـلائـكـةٌ كِـرامُ مـلائـكـةُ الإلَـهِ مُـقـرَّبـيْـنَا

؛ فلإثارة الآخر نوَّهَ الشاعرُ بقوةِ العَرش الذي يطفو فوق الماء ، ثم عزَّز ذلك بفوقيَّة ربّ العزةِ الجالسِ فوق العرش ؛ فجاءتْ الفوقيَّةُ مَلمحاً إشارياً لعظمةِ الذَّاتِ الألهيَّةِ التي لا يُجاريها شيءٌ ، ولم تنته مُتوالية الحُجج بهذا التَّنوير الفَوقي ؛ بل عُضِّدت بمُستلزماتها الرئيسة التي نجَّحت هذه السِّمة وتمثل ذلك بالملائكةِ الذين يَحملون العَرش ، أي أنَّ العرشَ بؤرةُ الحُجج التي دارتْ حَولها طبيعتها الفوقيَّة المُزدوجة فوق الماء والذاتُ فوقَ العرشِ والعرش تحملهُ الملائكة ، أي سلسلة مُتوالية لإيضاح مَقصد واحد في تناغُمٍ وانسجام هما سِمتان مُهمَّتان في تشكيل النَّص الحِجاجي ، ولكي تكونَ الخاتِمةُ بقوةِ الإبتداء ووحدة الإنسجام قويَّة بينهما حمَّلَ الشاعرُ حُجَجه الإستدلاليَّة بباقةٍ من التَّنويرِ المُمثل بصفةِ الملائكة التي ترفعُ العرش ؛ فصفتها أنَّها من الكِرامِ المُقرَّبين ؛ فهُنا صِفة أنَّهم في المرتبةِ الأُولى من العنايةِ كونهم كِراماً ؛ فضلاً عن تحديد قُربهم عن طريق وصْفهم بملائكة الإله المُقرَّبين جداً لحملة عرشه فحسب ، كُلُّ هذه حُجَجٌ استدلاليَّةٌ إقناعيَّةٌ تبريريَّةٌ مُهمَّتها تغيير مَفاهيم الآخر الذي لا يعلمُ بها ، وعليه نجحَ النَّص في ترتيب سُلَّمه الحِجاجي بطريقةٍ مُثيرةٍ ومُميزةٍ هدفها التأثير.

وفي اتجاهِ الثَّبات على فلسفةِ العقيدةِ والإمتثال لأركانِ الإسلامِ والإيمانِ مَعاً ؛ يُقدِّم لنا أبو بكرٍ الصِّديق (رضي اللهُ عنه) في قصيدةٍ طويلةٍ فلسفتهُ الذاتيَّة المليئة بالخُضُوعِ والإنقيادِ الطَوعِي لتلك الأركان ؛ بل وتعظيمها بطريقةِ الحِجاجِ الإستدلاليِّ المُوجَّهِ لإحداثِ التأثير في الآخر " لأنَّ العمليَّةَ الإقناعيَّةَ مَبنيةٌ على الإقناع والاقتناع ، ولا يُمكن أنْ تقومَ على جانبٍ واحدٍ مِنهُما " (حمدان ، سليم – ٢٠٠٩ – ٩٢)، ومن ذلك قولهُ : (الصديق ، أبو بكر – ١٩٩٩ – ١٨٦ – ١٨٧)

فَأَسعَدَ قَـوماً بِـهِ رَبُّـهُم فَأَضحَوا وَحُكمُهُمُ الأَعـدَلُ
وَمـيزانُ غَـيرِهِـمُ شـائِـلٌ وَوَزنُـهُـمُ الأَرجَــحُ الأَثـقَلُ
فَآمَـنـتُ بِاللَهِ إِذ جـاءَنـا كِـتـابٌ لَـهُ مُـحـكَمٌ مُـنـزَلُ
وَصـدَّقتُ أَحمَدَ وَهوَ الَّذي حَبانا بِهِ المُنعِمُ المُفضِلُ
فَسَنَّ الصَلاةَ لَنا وَالزَكـاةَ وَبِـرّاً بِـذي رَحِــمٍ يـوصَلُ
وَسَنَّ الصِيامَ لَـنا وَالقِـيامَ مُوَلّى إِلى اللَهِ لا تَجـهَلـوا
وَحَجّاً إِلى اللَهِ في بَـيتِـهِ لِمَن كانَ ذاكَ لَهُ يَسهُلُ
وَأَمراً بِعُرفٍ وَنَـهياً عَنِ ال مَـناكِرِ في كُلِّ ما يَفعَلُ
تَـقَـبَّـلـتُ ذلِكَ مِن عِلـمِهِ وَما زالَ في حُكمِهِ يَعـدِلُ
وَجاهَدتُ في اللَهِ أَعداءَهُ الَ لَـذيـنَ بِـهِـم رَبُّنا يَمحَـلُ

قدَّمَ أبو بَكرٍ الصِّديق في هذه الأبيات فلسفتهُ الفكريَّة المُتعلِّقة بالعَقيدةِ الإسلاميَّة ؛ وقد اتصفتْ هذه الفلسفةُ بالآتي :

١ - إنَّها فَلسفةٌ فِطريَّةٌ نَابعةٌ من ذاتٍ عَلِمت الصَّوابَ من الخطأ ، لا فلسفةٌ مُتجذِّرةٌ في الأصولِ العقليَّةِ كما في التَّياراتِ الفلسفيَّة التي تبحثُ عن الحقائق الخفيَّةِ وغيرها .

٢ - جاءتْ رُؤاهُ الفلسفيَّة عاكسةً لنزعاتِ الإصلاحِ التوَّاقةِ للتجديد وهَدم ينابيع الشِّرك والعِصيان . وهو بذلك يُؤسسُ لمرحلةِ التجديد على وُفقِ مُعطياتِ الفلسفةِ الإسلامية .

ولهذا انطلقَ الصِّديقُ لبيان مقاصدهُ ابتداءً من المُوازنةِ بين قومينِ مُتنافرينِ وانتهاءً بهما ؛ ليُحقِّق بذلك الإنسجامَ والتناغمَ اللذين يُعوِّل عليهما الحِجاجُ من حيث الإستدلال المُتدرِّج في الصعودِ والمُتكافىء في العرضِ والنتائج ، أي الإستعانة بجدليَّةِ الحِوار المُمنهج من طرفٍ واحدٍ للإثارةِ وجذب الإنتباه وصُولاً للإقناع والجذب . وبعد اختياره طريق الحقِّ راحَ يُرسل إشاراته للمُتلقي لعزلهِ عن عالمهِ المَقيت والدخول في مُعتركِ الدين الجديد لمَا يحويهُ من ميِّزات ، وهذه الميزاتُ استعان بها لتكونَ حِججاً مُتوالية ، أي مُقدِّمات ومُسوِّغات إقناعيَّة لاستمالة عقل الآخر ، فالأنا أعلنتْ هُويتها من خلال الأفعالِ الباثةِ للإستدلالِ الحِجاجي (فَآمَنتُ ، وَصَدَّقتُ ، تَقَبَّلتُ ، وَجاهَدتُ) ؛ أذ قيَّدتْ فلسفتها بالإيمان بالله وتصديق نبي الأُمةِ محمد (صلَّى الله عليه وسلَّم) ، وتقبُّل أفعاله وأقواله والعمل بها ، ثم الجهاد في سبيلِ الله للخلاصِ من التَّبعيات الجاهليَّة ، وفي مُقابل هذا التقييد راحتْ الأنا تضعُ الحُججَ التي على وُفقها ستكونُ نواةً للآخر الذي يقبعُ في الجهةِ المُعاكسة ، وبين البؤرةِ والنَّواةِ يبدأُ السُّلَّمُ الحِجاجيُّ بتنظيم القصديَّةِ والتخطيط كجُزءٍ مِنْ الفلسفةِ الحِجاجيَّةِ التي تعتمدُ على الحُجَجِ لا البراهين والأدلة ، ويُمكن بيان هذا على النَّحو الآتي :

البؤرةُ ـــــــ إيمانُ الصِّديق

النَّواةُ المُتشكلةُ بحسب السُّلَّم الحِجَاجِي تتشطرُ إلى : أركان الإيمان :الايمان بالله وكتابه ونبيه أركان الاسلام : الصلاة والصوم والزكاة والحج

أي إنَّ إيمانَه دفعهُ إلى إعلاء شأن أركان الإيمانِ والإسلام معاً ؛ كسلَّةٍ واحدةٍ تُمثلُ العقيدةَ الراسخةَ بوحدانيَّةِ اللهِ تعالى ، ولم يأتِ هذا التَّعاضُد بين ومضةِ البُؤرةِ وتشكيل الرُّؤى الفاعِلةِ لنواةِ التغيير عند المُتلقي الآخر ؛ إلاَّ من خلال الرَّوابط الحِجاجيَّة التي جعلتْ النَّص وحدةً مُنسجمةً من التماسُك اللُّغوي والإستدلالي ، فالفاءُ والواو كانا عُنصرين لُغويين لربط البدايةِ بالنهايةِ أو السبب بالنتيجة ، فضلاً عن زيادةِ اللُّحمةِ الدلاليَّةِ بوساطة بناء وحْدةٍ عضويَّةٍ جلعتْ النَّص لوحةً شِعريَّةً مُترامية الأبعاد التداوليَّة . وفي النهايةِ استطاع حِجاجُ التَّبرير الكشفَ عن الفِكرِ الفلسفيِّ الكاملِ الذي تمتَّعَ به أبو بكرٍ الصِّديق والذي مثلَ سُلَّماً حِجاجياً مُقنعاً ومُؤثراً في الوقتِ نفسه .

وفي اتجاهِ مُراعاةِ السِّياقات المَقاميَّةِ بحسب التوصيفِ الجدليِّ المُثيرِ للإقناع والحِواريَّةِ المَتبوعةِ بالحُجَجِ المُتلازمةِ لقضيَّةٍ مُعيَّنة ؛ وجدنا أنَّ التَّلاصُقَ الفِكريَّ بين المُخاطِب والمُخاطَب قويٌّ ومتينٌ من وجهةِ نظر التداوليَّةِ التي ترى أنَّه " لابدَّ لكُلِّ مُتكلِّمٍ أنْ يعرف مُستمعه ، ويعرفَ مكانتهُ الإجتماعيَّة والسياسيَّة ، لأنَّ العبارةَ تتباين بتباين المَقام وتباين مَكانة وصفة المُستمع . " (حمدان ، سليم – ٢٠٠٩ – ٩٧) ، وعليه فقد تبلورتْ في نصوصِ شُعراء الصَّحابةِ فلسفةُ مُناهضة الكُفَّار ومُحاربة مُثلهم وسلوكهم ، واتَّضحَ ذلك بإعلان كعب بن مالك مُساندته للإسلام والتبرئة من أفعالِ الكُفَّار ، إذ قال : (الانصاري . كعب بن مالك – ١٩٩٧ – ٨٤) .

**لـقـد عَـلِـم الْأَحْـزَاب حِـيـن تـألـبُـوا		علـيـنـا ورامُـوا ديـنـنَـا مَا نـوادعُ**
**أضاميمُ من قيس بن غيلان أصْفقت		وخـنـدف لم يـدروا بما هو واقعُ**
**يَـذُودُونَـنَـا عَن دِيـنِـنَـا ونَـذُودُهـم		عَن الكُـفْـر والرَّحـمن رَاءٍ وسامِعُ**
**إذا غَـايـظُـونا فِـي مـقَـام أعـانـنَـا		على غَيْظِهم نَـصرٌ من اللهِ وَاسِعُ**
**وَذَلِـكَ حِـفـظُ الله فِـيـنَـا وفَـضـلُـهُ		علـيـنـا وَمَن لم يَحْـفظِ الله ضائِعُ**
**هَدَانـا لـدينِ الـحـقِّ واختـارَهُ لـنـا		وللهِ فـوقَ الـصـانـعـينَ صَنـائِعُ**

أسبغَ الشاعرُ على نصهِ سِمة النُّصحِ والتوعيةِ لمَعرفتهِ بمقامات الذين يَسوقُ لهم الحُججَ وأحوالهم ، وذلك لتحريك رواكد الذِّهنِ وتهيأتها لنتائج الإستدلال التي تأتي بوساطة السُّلَّم الحِجاجي ، وقد أسسَ مُجريات فلسفتهِ الدينيَّةِ عبر ثُنائياتٍ تَقابُليَّةٍ مُهمَّتها رصد الحالةِ ومُعالجتها ، فالثنائيَّةُ الكُبرى تمثلتْ بتقابُل الأحزابِ مع حزب الله الواحد الذي مثلهُ الشاعرُ وأقرانه ، مِمَّا استوجب دلالياً وجود خلافٍ مُتجذِّرٍ في عُمقِ الهُويَّةِ الإنتمائيَّةِ بين الإسلامِ وأعدائه ، ولكي تأخذَ هذه الثنائيَّة مَساحتها الجدليَّةِ جاءتِ الرَّوابطُ الحِجاجيَّةُ لتُعلن أحقيتها برطِ هذه الثنائيَّة بثُنائيَّةٍ أُخرى مُتفرعة إلى اتجاهين كذلك ، وكان للرَّابط اللُّغويِّ والتركيبيِّ مَيزته في تحقيق ذلك عبر فِعل الجماعة (يَذُودُوننَا ، ونَذُودُهم) الذي هو مِحورُ التقابُل البارز في النَّص ، وكذلك (إذا ، والواو) الرَّابطين بين مُتضمّناتِ القول ومُحتواها القَضَوي للوصولِ إلى دائرة الإدراك المَطلوبة ، فالثنائيَّةُ الجزئيَّةُ هي من حرَّكتْ السُّلَّم الحِجَاجي لأداءِ دوره التأثيري ، واستبان ذلك بحركيَّةِ الأنا وأنصارها وخُمول الآخر وأتباعه من خلالِ قُدرة الله تعالى على تنفيذ هذه القَصديَّة ، فحركيةُ الأنا تمثلتْ بذودها عن دينها وطَرد الكُفَّار في مُقابل ذود الكُفَّار وطردِهم للمُسلمين واغضابهم ؛ فكانتْ النتيجةُ نظرةَ الله تعالى لهما وسماع ما في جُعبتِهما وصُولاً لنُصرةِ المُسلمين التي تمحورتْ بحفظه تعالى لهم ، وفضلهِ عليهم وهدايتهم لدينه ، هذه النُّصرة جعلتْ الجُزءَ الآخر من الثُّنائيَّةِ الجُزئيَّةِ حِجَجاً تكميليَّة تخُصّ الآخر الخاسِر ، ولهذه توزعتْ الرُّؤى لتشمل الأحزاب المُعاندةِ للمُسلمين في تلك الحِقبة ، وكذلك

للأحزابِ التي تسيرُ على مِنوالها إلى يومِ القيامةِ ، واتضح ذلك عبر السياقِ التركيبيِّ المُعبِّر عن ذلك ، بدلالة :

وَمَن لم يَحْفظِ الله ..... (لم يُحدِّد فئةً أو جِهة) ــــــــــ نتيجةُ الحِجة - ضائِعُ

وللهِ فوقَ الصانِعينَ ... (لم يُحدِّد مَنْ هُم ؛ وفي أيِّ زمن) ـــــ نتيجةُ الحِجة – صَنائِعُ

أي إنَّ الخُلاصةَ المُتَّصلة بالآخر الخَاسِر هي قِدرةُ الله في النِّهايةِ على تفنيدِ المَكائد والصنائِع وحصر أصحابها في خَيبةِ الضّياع والهلاك ، وبامتشاج الثنائيتينِ الكُبرى والصُغرى الجزئيَّة تحقَّق لِحِجاجِ التَّبرير مُبتغاهُ وأهليتهُ في إحداثِ النقلة المنشودةِ في المُتلقي وإقناعهِ بمُتطلبات النَّجاةِ المُتضحة عَبر الحُجج المُتواليةِ .

وتأصيلاً لفلسفةِ الذات يُطالعنا الشاعرُ الصلصالُ بن الدلْهمس بفلسفةٍ فكريَّةٍ تُوجِّه الإنسانَ نحو تجنُّبِ المَعاصي والإكثار من الأعمالِ الصالحةِ التي تُعينهُ في آخرته ، ولاسيما أنَّه قال أبياتهُ في حَضرةِ الرَّسولِ الكريم محمد(صلَّى الله عليه وسلَّم) ، إذ قال: (العسقلاني ،احمد بن علي بن حجر - ٢٠١٢- ٧٠٣/١)

تَـجَنَّـبْ خَـلِيطًـا مِنْ مَـقَالِكَ إنَّـمَـا ... قَرِينُ الفَتَى في القَبْرِ مَا كَانَ يَفْعَلُ
وَلاَ بُدَّ بَعْدَ المَـوْتِ مِـنْ أَنْ تُعِــدهُ ... لِيَوْمِ يُنَادَي المَـرْءُ فِيه فَيُقْبِــلُ
وَإِنْ كُـنْـتَ مَشْغُولًا بِشَيْءٍ فَـلاَ تَكُنْ ... بِـغَيْرِ الَّذِي يـَرْضَى بِهِ الله تُشْـغَلُ
ولن يَصْحَبَ الإنْسَانَ مِنْ قَبْلِ مَوْتِهِ ... وَمِـنْ بَـعْـده إلاَّ الَّذِي كَـانَ يَعْمَــلُ
أَلا إِنَّـمَـا الإِنْسَانُ ضَيـفٌ لأهْـلِهِ ... يُـقِـيـمُ قَلـيِلًا بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَرْحَــــلُ

بنى الشاعرُ نصهُ على قاعدةِ التفريعِ والمُشاكلةِ لفرزنةِ الرُّؤى المُتصلةِ بالحياةِ على نحوٍ يُسهمُ في تشكيل فلسفةٍ مُوجِّهة ومُؤثرة ، فالتفريعُ الأول كان من نصيب الفلسفةِ الفكريَّة ، والثاني من نصيب فلسفة الإستدلال الحِجاجِي ، وبمُشاكلةِ الفلسفتين تأتي النتائج أُكلها عبر تجديد المَفاهيم ، فالشاعرُ في إطار الفلسفةِ الفكريَّةِ اتخذَ من التحذيرِ (تجنَّب) في استهلاله مُفتتحاً لإنارةِ العُقول بما ستؤول إليه الأمورُ بعد فواتِ الأوان ، ولاسيما أنَّه ختمَ بدايته التحذيريَّة بحِكمةٍ خاصةٍ تدفعُ النُّفوسَ لمُراجعة نفسها ، أي إنَّه بنى التناغمَ المُراد في ساحةِ الفلسفةِ المُعتمدةِ على الفعلِ وردَّته ؛ وهذا ما يُمثِّل " علاقةً وطيدةً بين الفلسفةِ واللُّغة ، لأنَّ الفلسفةَ لا تشتغل إلاَّ على اللُّغة وحولها ، وما دامتْ اللُّغة تزخرُ بأنواع الخِطاب فمن ثمَّة هي مُرتبطةٌ بها ، وللخِطاب سياقٌ لُغويٌّ تندمج فيه علاقة المُتكلِّم بالمُتلقي ، وهو الذي يُعرف في الفلسفةِ بالأنا والآخر . " (نصيرة،لوصيف – ٢٠١٥ – ١١) ، فالتحذير مشفوعٌ بالحِكمة التي تقي الإنسان من الوقوعِ في منطقة المحظور ، وهي مُشاكلةٌ مُغنيةٌ ومُفيدةٌ ولكنَّها تحتاجُ إلى حُجَجٍ استدلاليَّةٍ تُعين الشَّخص للوصول إلى الخلاصِ من العذاب ، لذا عَضَّدت فلسفةُ الإستدلال الحِجاجي الفلسفة العامة الأُولى عبر تكثيف الشاعر للرَّوابطِ الحِجاجيَّة بهيأتها اللُّغوية (الواو ،

الفاء ، إلاَّ) ولَي عُنق النَّص بالصورةِ التي تدفعها الحُجج ، وتبلور ذلك بتنسيق الإنسجام والتناغم والتخطيط بين الإستهلالِ والخاتمةِ ؛ عبر ابتداء الشاعر بذكرِ الموتِ والقبرِ كنتيجةٍ حتميَّةٍ للفناءِ ، ثم التعريج نحو مَراحل العمل الحياتيَّة المُوصلة إلى نهايةٍ مَرغوبةٍ بفعل العمل الصالح ، فكانتْ الحُجَجُ مُوزعةً على الإنشغال بما يُرضي الله تعالى ، والعمل النافع الذي يُفيد صاحبهُ في الدنيا والآخرة ، والإستعداد للرحيل بعد الضيافة ، وهي كفيلةٌ بمجموعها لنفعِ صَاحبها في القبرِ ويوم القيامة . ويتضح ذلك عبر الآتي :

وَإِنْ كُنْتَ مَشْغُولًا .... فَلاَ تَكُنْ (الرَّابط) ـــــــــــ الانشغال بما يرضي الله تعالى

ولن يَصْحَبَ الإنْسَانَ .... إلاَّ (الرَّابط) ـــــــــــ الأعمال

الإنْسَانُ ضَيـفٌ لأهْــلِهِ ـــــــــــ الرحيل

ثم هناك رابطٌ آخرٌ بين الإستهلالِ والخَاتمةِ يتمثلُ بالرحيلِ العائدِ على فعلِ الشَّخصِ في القبر ، فبعد الإقامة يحصلُ الرحيل ؛ فالإقامةُ هي الدُّنيا والرَّحيلُ يُمثل الآخرة ، وهنا استطاع الشاعرُ من ربطِ التحذير المُقترنِ بالقبرِ بالحُججِ المُتواليةِ المُتعلِّقة بالحياة كنتيجةٍ حتميَّة . وهو ما أعطى لتبريره قُوةً إقناعيَّةً مُؤثرةً في المُقابل .

ولم يكُنْ حِجاجُ السُّلطة بعيداً عن أنظمةِ حِجَاج التَّبريرِ المركزي ، بل هو جزءُ منها ويتعاطى معها بحَسب بنيته وما تُحدثهُ من أثرٍ مَلموس ، فهو لا يُرتِّبُ سُلَّمه الحِجاجي إلاَّ على وُفق بنية الواقع التي تتصل بالمرجعيَّات المُكوِّنة لها ، لتتناغم الحُجج وتنسجمُ مُعلنةً سطوتها على تغيير المَفاهيمِ والتأثير المُباشرِ في المُتلقي ، فـ " السُّلطة التي يتمتعُ بها بعض الأفراد تُشكِّل حُجَّةً في ذاتها ؛ وقد تكون هذه السُّلطة ترغيبية مَقرونة بفعل صاحبها ... كما قد تكون ترهيبية " (رحيمة ، شيتر – ٢٠٠٩ – ٦٥) . وفي ضوءِ هذه الأهميَّة وجدنا أنَّ شُعراء الصَّحابة أثناء عَرضهم لرؤاهم الفلسفيَّة ، راحوا يُبرِّرون لأفكارهم وموضوعاتهم عبر الإتكاء على حِجاج السُّلطة الذي يُقرِّب مَسافة المعلوماتِ والفلسفةِ المُحدَّدةِ من ذهنيَّةِ المُتلقي لسببين هما :

١ – يكونُ الشاعرُ بوساطته مُقتدراً ومتعالياً على المَقاماتِ التي يُخاطبها في خِطابهِ الحِجاجِي ويعمل على ضبط أفكارها بحسب ما يرى ويبْتغي .

٢ – قُدرة حِجاج السُّلطة على تشكيل نواةٍ ضَاغطةٍ تعملُ على تمكين أُحاديَّة الفلسفةِ الفوقيَّةِ مِن بثِّ ومْضاتها الفكريَّةِ وسيطرتها على أجواءِ الفلسفةِ الجماعيَّةِ المُتهرِّأة .

ولأهمية ذلك نجدُ صيغةَ التعنيفِ والتعريةِ الفكريَّةِ التي وظَّفها حسَّان بن ثابت واضحةً في شِعره وهو يُخاطبُ الحارثَ بن عامر إذ قال : (الانصاري ، حسان بن ثابت – ١٩٩٤– ٣٧).

يا حَارِ قدْ كـنْتَ لْولا ما رُمـيتَ بِهِ لله دَرُّكَ فــتي عِـزٍّ وفي حَسَبِ

جَـلّلْـتَ قَـوْمَـكَ مَخْـزَاةً ومَـنْقَـصَةً ما لـم يُجـلِّلْـهُ حــيٌّ مِنَ الـعَرَبِ
يا سالِـبَ البيْتِ ذي الأرْكانِ حِليتَهُ أدِّ الـغَزَالَ فَـلَنْ يَخْـفَى لمُسْتَلِبِ
سائلْ بـنـي الحارثِ المزري لمعشرهِ أينَ الغزالُ عليهِ الدُّرُّ منْ ذهبِ؟
بئسَ البنُونَ وبئسَ الشيخُ شيخُهمُ تَبّاً لـذِلِكَ مِنْ شـيـخٍ ومِنْ عَقِبِ

أخذَ الشاعرُ مَساحةً من الحُرِّيَّةِ وهو يَهجو الحارثَ على فِعلة سِرقة غزال الكعبة ، لذا بَنى خِطابهُ على الآتي :

١ – بناهُ على الفوقيَّةِ في التَّعاملِ ورصد الخَلل ومُعالجته بالتقليل من الشأنِ وإنزال قِيمة تلك الشَّخصيَّة .

٢ – استند إلى حِجاجِ السُّلطة كوسيلةٍ مُهمَّةٍ للتعبيرِ عن مَكنونات الذاتِ المُصلحة ، ومِيزة فُضلى للتخلُّص من هكذا أفعال مُشينة .

وعلى وفق ذلك فإنَّ أُولى السِّمات الحِجاجيَّة المُستبانة هنا هي القصديَّة المُباشرة في تشخيص الإعوجاجِ في الذاتِ المهجوَّة ، مع تدعيمها بوحدةِ الإنسجامِ التي تُسيطرُ على بدايةِ النَّص ونهايته ؛ إلى جانب الإستدلال الحِجاجي الذي يقبعُ بينهما ، فقد إبتدأ النَّص بالنداء المُرخَّم الدال على المُساجلةِ والحِساب ، ثم تدرَّج نحو عرض مَسألة الذمِّ والمَنقصة التي خلَّفها حارثُ لقومه ، مِمَّا ترتَّب على ذلك البدء بتقديم الحُجج الساندةِ لفعلِ القول القصدي ؛ فكان سلبُ غزال الكعبةِ مِفتاح الحُجج ؛ لذا راح يطلب منه ارجاع ما أخذه (أدِّ) ، ومُساءلة قومه (أين الغزالُ) ؛ ونتيجةُ المنْقصةِ تمثلتْ ببئس العشيرةِ وشيخهم فهم في وادي الخُذلان والعيوب . وفي إجمال تكوين السُّلَّم الحِجاجي تتضح بوادر المعاني المَقصودةِ التي تتدرَّج من الأقوى إلى الأضعف ويُمكن مُلاحظة ذلك في هذا السُّلَّم :

بئسَ البنُونَ وبئسَ الشيخُ ـــــــــ تَبّاً لِذِلِكَ مِنْ شيخٍ
سائلْ بني الحارثِ ـــــــــ أينَ الغزالُ
يا سالِبَ البيْتِ ـــــــــ أدِّ الغَزَالَ
جَلّلْتَ قَوْمَكَ مَخْزَاةً ومَنْقَصَةً ما لم يُجَلِّلْهُ حيٌّ مِنَ العَرَبِ
قدْ كنْتَ لْولا ما رُميتَ بِهِ ـــــــــ في عِزٍّ وفي حَسَبِ

فالنهايةُ الطيِّبة بحسب السُّلَّم مرهونةٌ بإزالةِ الحُجج التي هي السبب في قلبِ هرمِ المقاصد ، فلولا تلك الفِعلةُ الشنيعة لكان مُستوى الحارث في عزٍّ وحسبٍ ، ولا ننسى دور الرَّوابط اللُّغويَّة والعوامل الحِجاجيَّة في جعل مُتضمِّنات القول تأخذُ مَسارها في التأثيرِ والإقناع ، فجاء نداءُ الترخيمِ للإستدلالِ على الشَّخصِ المُنادى في الإستهلالِ لإعلاء القصديَّةِ والبحث عن مكنوناتها التي وردتْ صريحةً في النِّداء المُباشرِ في البيت الثالث (يا سالِبَ البيْتِ) وهو النداء الذي مثل رأس الحُجَّة الذي انْبنى من أجلهِ النَّص كلَّه ؛ فضلاً عن أزمنةِ الأفعالِ الدَّالةِ

على المُضيِّ بحادثةِ السَّرقة (كنْتَ ، جَلَلْتَ) ؛ وهي عائدةٌ على الذات مَصدر الفعلِ في الماضي والمُساءلة التي تجري في الحاضر ، إلى جانب تعزيز أرصد البناءِ للسُّلَّم من خلالِ العوامل الحِجاجيَّة التي تمثلتْ بالتكرارِ اللَّفظي والإشتقاقي (جللت ، يجلله ، سالب ، مُستلب ، بني ، بنون ، بئس ، شيخ ، الغزال) ، أو بصيغةِ الكلماتِ الهجائيَّةِ السالبةِ لإرادةِ المُقابل (سالب والمُستلب، بئس البنون ، بئس الشيخ ، تباً للشيخ ومن يعقبه) ، وهذا يعني أنَّ الرَّوابطَ والعواملَ الحِجاجيَّة كانتْ أدواتاً فاعلةً في انجازِ الوحدةِ المركزيَّة في حِجاجِ التَّبرير المُنفرطِ من (لولا) ؛ لكي يُحقِّق التبريرُ غاياتهُ التأثيريَّة والإقناعيَّة مَعاً .

وفي إطار إعلان البراءة من المُشركين والانتقال إلى صفِّ المُسلمين ؛ والتمسُّك بحِجاجِ السُّلطةِ كدرعٍ يقي من المُساواة بين فريقين لا يُمكن لهما الالتقاء ، نجد أنَّ الشاعرَ فُدفد بن خنافة البكري قدَّم فلسفتهُ الفكريَّة المُؤمنة بأهليَّةِ الإسلام وأحقِّيته بالإتِّباع عبر الرَّد على أبي سُفيان بن حرب إذ قال مُساجلاً : (العسقلاني ،احمد بن علي بن حجر – ٢٠١٢– ١٥٧٥/٣ – ١٥٧٦) .

أَلَا أَبْلِغَا صَخْرَ بْنَ حَـرْبٍ رِسَالَةً بِأَنِّي رَأَيْتُ الحَقَّ عِنْدَ ابْنِ هَاشِمِ
رَأَيْتُ امْرأً يَدْعُو إِلَى البِرِّ والتُّقَى عَلِيمًا بِأَحْكَامِ الـهُدَى غَيْرَ ظَـالِمِ
فَأَخْبَـرَنـي بِالغَـيْبِ عَـمَّا رَأَيْتُـهُ وَأَسْرَرْتُـهُ مِنْ مَعْـشَرٍ فِي مكَـاتِمِ

ينشطرُ خِطابُ الشاعرِ إلى بؤرتين إحداهما تُمثل ملامحَ التَّحدِّي والتعالي السُّلطوي لمُواجهة المُبلِّغ أبي سفيان ومُحاجَجَته ، والثانية تمثلتْ بالإنسحابِ الطوعي لطرفِ الإسلام بوساطة رؤية الحقّ عند الرَّسول الكريم محمد (صلَّى الله عليه وسلَّم) ، فالبؤرةُ الأُولى أعطتْ النَّص ولاسيما استهلاله عبر (ألا أبلغا) بدايةَ الإنفتاح على معالم تستدعيها عمليَّة الإبلاغ ؛ ما قِيمةُ الابلاغ ؟ ما الغايةُ منه ؟ وهكذا ، وهذا يعني أنَّ الأمرَ يتطلَّبُ الحُججَ الكفيلة بالإجابة على أمر الإبلاغ ؛ واستبانَ ذلك بوساطة الحُجج المُتتابعةِ المُتصلةِ بالشَّخصيَّةِ التي آمنت بالدِّين الجديد ، فالإنسحابُ الطوعيُّ تطلَّبَ الحُججَ التي دفعتْ صاحبها لذلك ، وقد اتَّضح ذلك بعد إخبار الرَّسول محمد (صلَّى الله عليه وسلَّم) له بالغيبِ وأهمية إشهار التوبةِ والتبرئةِ من المُشركين ، فضلاً عمَّا سمعهُ ورآهُ عن شخصيتهِ العظيمةِ العالمةِ بأحكامِ الهدايةِ وابتعاده عن الظُّلمِ وإعلاء شأن البرِّ والتقوى وإحقاق الحق ، كُلُّ هذه الحُجَج كفيلة بانجاح السُّلَّم الحِجاجي ، فحُجج البؤرةِ الثانيةِ أوصلتْ أمرَ الإبلاغ إلى مُحتواه التداولي وهو أنَّ مسارَ التغيير حاصلٌ بسبب ما وجدهُ وتيقَّن مُراده ، وعملتْ الرَّوابطُ والعواملُ الحِجاجيَّةُ عملاً مُحدَّداً وهو تفعيل الخِطاب وتشكيل مَضانه التأثيري ، فروابط اللُّغةِ (ألا ، الفاء ، الواو) وعوامل الحِجاج بآليةِ التكرارِ (رأيت) حرَّكت مُجريات السَّواكن وصولاً إلى مُنتهى الغايات المُنتقاة ، وهي وحدةُ الإنسجامِ والتناغمِ بين البدايةِ والنهاية ؛ ليكون الخطابُ وحدةً نتاجيَّةً مُفعَّلةً لإحداث الإقناع

والتَّبرير لكُلِّ ما هو جديد للفلسفات والأفكار في إطار الفعل القصدي المُنجز فإذا " كان السلوكُ والسُّلطةُ يُشكلان حُجَّة فإنَّ الفعلَ المُتضمِّن في القول أو المُنجز بالقول يُشكل حُجَّةً تدفع المُخاطَب أو السامع للتغيير من موقفهِ أو تعديله ؛ فيصبح موقفه مُتصلاً بذلك الفعل المُنجز بالقول . " (رحيمة ، شيتر – ٢٠٠٩ – ٦٧) ، وعليه نجحَ حِجاجُ السُّلطةِ هنا من تفعيل حِجاج التَّبرير عبر بناء مَقاصده وسُبل نجاحه .

المِحورُ الثاني : حِجاجُ الاستشهاد

تتمثلُ ثقافةُ الخِطاب الأدبي بمجموعةِ المَعارفِ والأفكارِ والفلسفاتِ التي تكونُ مُنتقاةً بتأنٍّ من المُبدع ؛ لتغيير قواعد الأنظمةِ الأُحاديَّة التي قبعتْ ردحاً طويلاً في ذهنيَّة المُتلقي ، والتجديد لا يتأتَّى إلاَّ بعد سِلسلة مراحل مُتوالية المُعالجات تكونُ مُراعيةً لأحوال المَقامات لأجلِ تنفيذ أهدافها على النحوِ الذي يُحدِث التنوُّع والقبول ، فتكديسُ المعارفِ وحشدها في الخِطابِ من دون تنظيمها يؤدي إلى مُتلازمة التَّشتُّت والحيرة في التعامل معها جُملة واحدة ، لذا فالأمرُ يستوجب تفعيل الرُّؤى الناشطة والفاعلة التي تعملُ على تنسيقِ تلك المعارف وإخضاعها إلى سُلطةِ المُساءلةِ والتَّحديد ، ثم المُباشرة باختيار ما يتناسبُ مع إمكانات المقامات المُخَاطَبة ، ومن أبرز أنواعِ الثقافات التي لها بصمةُ الحُضور والتأثير والإقناع هي تلك التي تقبعُ في النَّص القُرآنيِّ الكريمِ ؛ فضلاً عن الأمثالِ والحِكم والمُثل العامة وما يتصل بهذا المجال . ويُعدُّ الخِطابُ الشِّعريُّ من أكثر الخِطاباتِ استعانة بالإستشهادات ؛ لأنَّه ينطلقُ من مبدأ التكثيفِ والإيجاز وتوجيه مَضان الأفكارِ باتجاه الفائدةِ والرَّغبة ، وهذا يعني أنَّ الإستشهادَ يجب أنْ يكونَ على وتيرةٍ مُتناغمةٍ مع موضوعات الخِطاب الشِّعري لتحقيق المُكتسباتِ المطلوبة ، ولكي نسعى إلى تحديد المفاهيم في وجْهتها الصحيحة نقولُ إنَّ اقتباسَ الشاعر للآياتِ القُرآنيَّة في اقتباسه المُباشر أو الإشاري ، يختلفُ عن تضمينها كحُججٍ داعمةٍ لفكرتهِ وفلسفتهِ الذاتيَّة ، لأنَّ وجودها مشروطٌ بالإقناع والتحوُّل لا عرض المعلومةِ فحسب ، فالإستشهادُ المُتكىء على الآياتِ القُرآنيَّةِ يُمثلُ " أقوى أنواع المُحاجَجةِ العقديَّة والعقليَّةِ المُستمدَّةِ من قُدسية النَّص القُرآني ، وهو نصٌّ يُخاطبُ العقولَ بكُلِّ آياته ، مُعززاً قوة الخِطاب العقلي بحُجَّةِ الدليل القطعي المُستمدِّ من نص القُرآن الكريم . " (الحيالي ، مها مهدي وحيد – ٢٠٠٩ – ٧٢) ؛ كما أشارَ جميل صليبا إلى دورِ القُرآن الكريمِ في رفدِ المعارف والأفكار ودحض كلّ ما يتنافى مع تعاليمهِ ومسارته ؛ لهذا عدَّهُ مَصدراً مُهمَّاً ورئيساً من مصادرِ الفلسفةِ العربيَّةِ على اختلافِ أشكالها وانتماءاتها . (صليبا ، جميل – ١٩٩٥ – ١٩) . وكذلك الحال بالنسبة للإستشهاد بالمُثلِ والعاداتِ والفلسفاتِ الإجتماعيَّةِ التي انتشرتِ في المُجتمعاتِ وأصبحتْ رائجةً لتشكيل أنظمة من المعارف المُؤدلجةِ التي لا يُمكن الإنزياح عن فحواها ، فتوظيفها يتطلَّب الإتكاء على السُّلَّم الحِجاجي للوصول إلى أسمى الخصائص الحِجاجيَّة المُؤثرة ، وقد أشار صابر الحباشة إلى حُجَّة المُثل بقوله : " إنَّ الغايةَ من اعتماده حِجاجيَّاً هو التأسيس للقاعدة والبرهنةِ على صحَّتها . " (الحباشة ، صابر – ٢٠٠٨ – ٤٩) . وهذا ما يتماثلُ مع الإستشهادِ بالآياتِ القُرآنيَّةِ من حيث إنَّ وجود معارف المُثل ليست للإستزادةِ المعلوماتيَّة فحسب ؛ بل هي ثورةٌ مُتكاملةٌ غايتها الإقناع والتأسيس لقاعدة مُغايرةٍ عن تلك القواعد السابقة ؛ والسعي إلى برهنةِ صدقِها وأهليتها وأحقِّيتها في البقاءِ

والتداول . وعليه فحِجاجُ الإستشهاد له غايةٌ مُحدَّدةٌ هي " توضيحُ القاعدةِ وتوضيحُ حضور الأفكارِ في الذهن ، وربَّما كان الإستشهادُ أداةً لتحويل القاعدةِ من طبيعةٍ مُجرَّدةٍ إلى أُخرى مَحسوسة ، ولعلَّ القرآنَ الكريم فيما يُقدِّم لنا من أمثلة حِجاجيَّة أهم مصدر لهذه الأشكال الحِجاجيَّة ، على أنَّ العناية بالإستشهاد القائم على التمثيل مُقيَّد بجملةٍ من القُيود لعلَّ أهمها عدم إطنابه . " (الحباشة ، صابر – ٢٠٠٨ – ٤٩).

وعلى هامشِ ما تمَّ إيضاحهُ بشأن اعتبار الإستشهاد عُنصراً مُهمَّاً في السُّلَّم الحِجاجي ، وجدنا أنَّ شُعراء الصَّحابة ضمَّنوا شِعرهم جملةً من الإستشهاداتِ المأخوذةِ من القُرآن الكريم ، ومن المُثل العامَّةِ النابعةِ من السُّلوكياتِ والعاداتِ المُجتمعيَّةِ وغيرها ، لبرهنةِ فلسفتهم الخاصة ورؤاهم المُجتمعيَّة التي ينبغي لها التجذُّر في الجيل ؛ فالمُحاجِجُ يعتمدُ " في خِطابهِ استراتيجيَّةً مُعينةً ، حيثُ يُخطِّطُ ويختارُ الحُججَ المُناسبة التي تُراعي غاية الخِطاب الحِجاجي الأساسيَّة وهي الإقناع " (بوخشة ، خديجة – ٢٠١٠ – ٥١) ، هذا التضمينُ عبر الإستشهاد ينعطفُ نحو تقوية فلسفتهم وجعلها رائدةً في بلوغِ التأثير والتبليغ عن مُنعطفاتٍ فِكريَّةٍ كثيرةٍ منها :

١ – فُرصةُ أخذ شُعراء الصَّحابة من النُّصوصِ الأُخرى ما يُوافقُ فلسفتهم ؛ ولاسيما البالغة الأثر كالنَّص القرآني ، وذلك لفرزنة مُعطيات التمثيل المَعرفي فيها وتطويعها على نحوٍ يخدمُ الفِكرَ الفلسفيَّ الذي يبْغون سَريانهُ وتقديمه للمُتلقي .

٢ – إنَّ مُحتوى التمثيلَ الفلسفيَّ لديهم يقومُ على عرضِ الأفكارِ المُتشابهةِ والمُتضادةِ معاً ؛ لأجلِ الإنفتاح على رُؤى جديدةٍ تكونُ مُفيدةً في مُحتواها للنَّص .

٣ – تعزيزُ أواصر الإعتزار بإرث الأُمَّةِ الماضي ودمج مُحتواهُ الفِكري بالحاضر ؛ لتشكيل لِبناتٍ مَعرفيَّةٍ غرضها الشّمُوليَّة والأفق المفتوح .

وبحسب هذه الأهمية فقد استعانَ كعبُ بن مالك بالاقتباسِ الإشاريِّ من القُرآنِ الكريمِ كدليلٍ حِجاجيٍّ لترجيح كفَّة الرَّسول محمد (صلَّى الله عليه وسلَّم) على النبيَّين مُوسى وسُليمان (عليهما السَّلام) ، وهذا واضحٌ في قوله : (الانصاري . كعب بن مالك – ١٩٩٧– ٢٧٠)

فَـإِنْ يَـكُ مُـوسـى كَـلَّـم اللهُ جَـهْرَةً ... عَـلَـى الطُّـورِ المـُـنِـيـفِ المـُعَـظَّـمِ
فَـقَـدْ كَـلَّـم اللهُ الـنـبـــيَّ مـحـمَّـداً ... عَلَى المـَوْضِـعِ الأَعْلَـى الرَّفِيعِ المُسوَّمِ
وَإِنْ تَــكُ نَـمْـلُ البَرِّ بالـوَهْمِ كَلَّمتْ ... سُلَيْمانَ ذا المُلكِ الذي ليس بالعَمِي
فـهـذا نَـبـيُّ اللهِ أحْـمـدُ سَبَّـحتْ ... صِـغَـارُ الـحَـصَـى في كَـفِّــهِ بالــتَّرنُّمِ

نجحَ الشاعرُ من خلال الرَّابط الحِجاجي (إنَّ الشرطيَّة) فضلاً عن زمانِ الفعلِ الماضي (كَلَّم ، كَلَّمتْ) من تحفيز رؤاهُ الفلسفيَّة لعقدِ مُماثلة بين الأنبياءِ الثلاثةِ مع رَجاحَة كفَّة الرَّسول الكريم محمد(صلَّى الله عليه وسلَّم) عليهما ، هذه المُماثلةُ حَصَّنتْ نفسها بالإستشهادِ القُرآني

عبر الإقتباسِ الإشاريِّ ؛ ليكون السُّلَّم الحِجاجي دالاً على مُحتواهُ القَضوي التداولي ، وقد اتكأتْ المُماثلةُ على عاملِ الحِجاجِ الرئيس وهو الإنسجامُ التام بين البدايةِ والنهاية ، ففي بداية الشَّق الأول اختصَ الشرطُ بتكليم الله سبحانه وتعالى لسيدنا مُوسى (ع) وجوابُ الشرط وهو الأفضل دلالياً اختصَ كنتيجةٍ مُهمَّةٍ بتكليم سيدنا محمد (ص) بموضعٍ أعلى من موضعِ سيدنا مُوسى(ع) ، وكلاهُما في الزمن الماضي للدلالةِ على وقوعِ الحدث وانتهائهِ مع الإرتقاء ، وما عَزَّز العاملَ الحِجاجي هنا هو الإقتباسُ الإشاري من خلالِ الإيماءِ بقصةِ تكليم الله سُبحانهُ وتعالى لسيدنا مُوسى(ع) في موضعِ جبل الطُّور ، وقِصة مِعراج رسولنا الكريم محمد(ص) إلى السماء ، وهي دلالةٌ على حظوةِ النبيَّين فيما هم فيه من النِّعمةِ الرَّبانيَّةِ بدلالةِ قوله تعالى : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ * إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ) (الشورى – ٥١). وقد ورد تكليمُ الله تعالى لسيدنا مُوسى في قوله : (وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) (النساء – ١٦٤)، وقوله : (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ) (الاعراف – ١٤٣) ، وقوله : (يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي) (الاعراف – ١٤٤) ؛ فهذه الآيات المُباركات مَثلتْ الحِجاجَ الإستشهاديَّ بعظمةِ التكْليم لكليهما ؛ مع مُراعاة مَقام النبيَّين وعُلو مَنزلة سيدنا الرَّسول الكريم (ص) .

وفي بدايةِ الشَّق الثاني مِن النَّصِ سلَّطتْ المُماثلةُ الضوءَ على ارتباطِ الشرطِ بالنَّملِ الذي كلَّم سيدنا سُليمان (ع) ؛ وارتباط جوابه كنتيجةٍ كذلك بتسبيح الحَصى بكفِّ سيدنا محمد (ص) ؛ وهو ما يَعني رِفعة مَنزلة نبيِّنا الكريم لرِفعة الفِعلِ الأدائي الحاصل جرَّاء التسبيح بيدهِ الشَّريفة ؛ ولبيانِ الإستدلالِ الحِجاجيِّ فإنَّ الشاعرَ جعلَ تكليمَ النَّمل لسيدنا سُليمان (ع) مُرتبطاً بالوهم ، في حين أنَّ الفعلَ الإنجازيَّ القَصديَّ المُتحقِّق بفضلِ تسبيح الحَصى مُرتبطٌ بالترنيمِ الذي يكونُ فيه الإستعدادُ والمُتعةُ والمَنفعة ، فكلامُ النَّمل يشوبُهُ الحذر بسبب وطأتْ جُنود سُليمان ؛ وهذا واضحُ في قولهِ تعالى : (حتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) (النمل – ١٨) إلاَّ أنَّ تسبيحَ الحصىَ وترنيمهُ فيه إشارةٌ صَريحةٌ على الطوعيَّةِ الإيجابية للتقرُّب إليه تعالى . وعليه كان حِجاجُ الإستشهادِ عبر المُماثلةِ المدروسةِ التي حفظتْ البدايات بنتائجها بالإتكاءِ على الرَّوابط اللُّغويَّةِ عاملاً أدائياً ناجحاً في تحقيقِ التأثيرِ في المُتلقي وجعلهُ مُدركاً للحقائق بسبب ما أوضحهُ الحِجاج .

ويؤكِّدُ لنا الشاعرُ الصحابيُّ لبيد بن ربيعة العامري توجُّه ذاته المُنكسرةِ نحو الملاذ الآمن المُتجسِّد بشخص الرَّسول محمد (صلَّى الله عليه وسلَّم) ورسالته النَّفيسة ، لذا راحَ يُعلنُ

براءتهُ من الأفعالِ التي أُرتكبتْ قبلَ إسلامهِ بُلغةِ الجماعة ؛ لزيادةِ الوعي بأهميَّة أنَّ ما يُقْدم عليه هو عملٌ صَائبٌ ؛ واستبان هذا في قوله : (العامري ، لبيد بن ربيعة – ١٩٦٢ – ٢٧٧)

أتَيْنـاكَ يا خَيـرَ البـريّـة كُلِّـهَا لتَـرْحَـمَنا مِـمَّا لَقِيـنـا مـنَ الأَزْلِ
أتَيْنَـاكَ والـعَذْراءُ يَـدْمَـى لَبَانُها وقـد ذهـلـتْ أمُّ الصَّبـيِّ عنِ الطِّفْلِ
وألـقَـى تَكـنّيهِ الشُّـجاعُ استِكانَـةً مـنَ الـجُـوعِ صُمْتاً لا يُمِرُّ وَلا يُحلي
ولا شيءَ مِمّا يأكلُ الناسُ عندنَا سِوَى العِلْهِزِ العاميِّ والعَبْهَرَ الفسلِ
وَلَـيــسَ لـنَـا إلاَّ إلَـيكَ فِـرَارُنَا وَأيــنَ يَـفِـرُّ الـنَــاسُ إلاَّ إلى الرُّسْلِ

في هذه الأبيات نشرَ الشاعرُ فلسفتهُ الفكريَّة بشأنِ تبرُّؤه من ماضيه ولجُوئه إلى حاضرِ الخيرِ المُمثل بشخص الرَّسول محمد(ص) ، بالإتكاء على حُججٍ أوصلتهُ لغايته ولاسيما حِجاج الإستشهاد مِن القُرآن الكريم ، ولكي يكون السُّلَّمُ الحِجاجيُّ مُؤدياً لمهامهِ وأهدافهِ جاءَ النَّصُّ مُنشطراً إلى خِطابين أحدهما خِطابٌ فوقيٌّ والآخرُ خِطابٌ دون ذلك يدور حول الخِطاب الأول ، فالخطابُ الأول المُتعلِّق بالرَّسول الكريم(ص) فيه الثقةُ والنَّجاةُ والملجأُ ؛ وهو في حركيَّةٍ مُستمرةٍ لوقوعهِ في زمن الحاضرِ المُستمرِ الدَّالِ على سيطرةِ الفلسفةِ الإسلاميَّةِ على الدوام بدلالة (أتيناك ، ترحمنا ، يأكل الناس ، يفرُّ الناس) ، والخطابُ الآخر جاء مُتمسكاً ولائذاً وخائفاً وفُرصة النَّجاةِ تتعلَّق بالفلسفةِ الإسلاميَّةِ لا العقائد الوثنيَّة وغيرها ، وهو مُقيدٌ بثبات الماضي المشؤوم بدلالة (لقينا ، ذهلت) . وبحسبِ الخصائص الحِجاجيَّة لابُدَّ من حدوث وحدة الإنسجامِ والتناغم بين البدايةِ والنهاية لتكون النتائجُ أبلغ في إحداث التأثير ؛ فكانتْ بدايةُ النَّص وخاتمته تدور في رحى الخِطاب الأول (أتَيْناكَ يا خَيرَ البريّة ، إلَيكَ فِرَارُنَا) ، أي البدء بالفكرةِ العامةِ – اتيناك طالبين – والإنتهاء بنتيجةِ الفِرار الكُلِّي نحو عالم الخلاص – اللجوء إليك – وما بينهما جاءتْ الحُججُ لتُدلِّل على الخلاصِ من مِحنتي الأفكارِ والجوع (لتَرْحَمَنا مِمَّا لَقِينا منَ الأَزْلِ ، ولا شيءَ مِمَّا يأكلُ الناسُ) ، أي البدء بالمُعتقدِ والفلسفةِ الحياتيَّةِ الخاطئةِ والإنتهاء بفكرةِ الجُوعِ وشظف العيشِ المُر . وقد أُنجز كُلّ ذلك بوساطة العوامل الحِجاجيَّة عن طريق الرَّوابطِ اللُّغويَّةِ وغيرها ، فكانتْ (الواو) سِلسلةً رابطةً بين الحُججِ والموضوع ، فضلاً عن تكرارِ (أتَيْناكَ) مَرتين كجُزءٍ من التأكيدِ على أنَّ الإتيانَ واقعٌ وما وراءه هو الحصول على المكاسبِ التي دفعتْ بهم إلى المجيء ؛ فحُجَّة الأفكارِ والجُوع ارتبطتْ ارتباطاً وثيقاً بحُجَّة الإستشهاد التي زادتْ من قوةِ المَشهدِ القائمِ على الفِرارِ والتوسُّل ، وهولُ الموقف في الفِرار تجسَّدَ في فزعِ الأمِ المُرضعةِ لطفلها وهي تتضورُ جُوعاً ومُنصدمة مِمَّا حصل من شُحٍّ في الخيرات ، وهو ما تناسب مع قولهِ تعالى : (يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) (الحج – ٢) . ولكي نُبيِّنَ قِيمةَ حِجاج الإستشهاد ودوره في بناءِ الخِطابِ النَّصي

ولاسيما في مقطعِ (ذهلتْ أمُّ الصَّبيِّ) ينبغي علينا ترتيب السُّلَّم الحِجاجي لنستدل على أنَّ نُقطةَ الإنطلاق في الطَّلب كانتْ بسبب ذُهول الأُم ؛ فالفِرارُ نتيجةٌ نهائيَّةٌ تطلَّبتْ تقديمَ الحُجج لمعرفةِ سبب هذا الفِرار ؛ فكانتْ الحُججُ جُوعَ النَّاسِ ، ثم ضعف الشُّجاع ، ثم ذُهول الأُم المُرضعة كونها لصيقةً بولدها جداً ، ولهذا أتيناك لترحمنا من كُلِّ ما أصابنا ، وللإيضاح نتَّبعُ هذا السُّلَّم :

إلَيكَ فِرَارُنَا ـــــــــــــــــــــ يَفِرُّ النَاسُ إلاَّ إلى الرُّسْلِ

ولا شيءَ مِمَّا يأكلُ الناسُ ـــــــــــــــــ سِوَى العِلْهِزِ والعَبْهَرَ

تَكَنّيهِ الشّجاعُ استِكانَةً ـــــــــــــــــ منَ الجُوعِ صُمْتاً

والعَذْراءُ يَدْمَى لَبَانُها ـــــــــــــــ وقد ذهلتْ أمُّ الصّبيِّ عنِ الطّفْلِ

أتَيْناكَ يا خَيرَ البريّة ـــــــــــــــــ لتَرْحَمَنا مِمَّا لَقِينا

أي وصول الأمر إلى ذُهولِ المرأةِ وهي نفسُ صُورةِ ذُهول المرأةِ المُرضعةِ في القُرآن الكريم لهولِ يوم القِيامة ، وهذا يعني أنَّ الأمرَ خَطيرٌ ومِفتاحهُ الرَّسول الكريم محمد(ص) ، فبه نلوذُ وإليه نَفِر.

ولم تكُن المُثلُ والقِيمُ والخِصالُ الإنسانيَّةُ إلاَّ رافداً حِجاجياً مُهمَّاً في نُصوص شِعر الصَّحابةِ الكِرام ، لأنَّها تنبعُ من فلسفتهِم الذاتيَّةِ والمُجتمعيَّةِ معاً ولاسيما حضور التأثيراتِ الإسلاميَّةِ في تنشئةِ الجيل ، وهذا ما يُمثلُ حالة الإندماجِ الكبيرة بين الأدبِ والفلسفة ؛ فالأدبُ " أحدُ الأشكالِ التعبيريَّةِ عن الأفكارِ الفلسفيَّة ، هو الأداةُ البالغة القوة والدلالة ، هو يُقدِّمُ أدوات ووسائل لا غِنى للفلسفةِ عنها إذا ما كانتْ تطمحُ إلى تأثير ما . " (الشيا ، محمد شفيق – ٢٠٠٩– ١١٢) ، لذا فالحِجاجُ القائمُ على المُثلِ والعاداتِ والسُّلوكياتِ المُتداولةِ أصبح سِمةً بارزةً في الخِطاباتِ من أجلِ جعلها فاعلةً ومُؤثرةً ومقبولة ، واحتماليَّة الإفادة منها واردة على نحوٍ كبير ، ويُمكن أنْ نلمسَ ذلك في قول أبي الأسود الدؤلي : (الدؤلي ، أبو الأسود – ١٩٩٨ – ٣٤٦) .

إذا ضاقَ صَدرُ المَرءِ عَن سِرِّ نَفسِهِ ... فَـفـاضَ فَـفـي صَدري لَسِرِّيَ مُتَّسَع
إذا فـاتَ شَــيءٌ فَـاصـطَـبِر لِذهابِهِ ... وَلا تَـتـبَعَـنَّ الشـيءَ إن فاتَكَ الجَزَع
فَـفـي اليـأسِ عَـمَّـا فـاتَ عِزٌّ وَراحَةٌ ... وَفيهِ الغِنى والفَقرُ يا ضافيَ الطَمَع
إذا صـاحِبـا وَصلٍ بِـحَـبـلٍ تَجاذَبا ... فَـمُـلَّ قُـواهُ أُوهِـنَ الـحَبلُ فَانـقَطَع
وَلا تَـحـفِـرَن بِـئـراً تُـريـدُ أَخـاً بِـها ... فَـإِنَّـكَ فـيـها أَنـتَ مِـن دونِـهِ تَـقَـع
وَكُلُّ امرِىءٍ يَبغي عَلى الناسِ ظالِماً ... تُـصِـبـهُ عَـلى رَغمٍ عواقِبُ ما صَنَع

ينفتحُ النَّصُّ على مُتقابلاتٍ دلاليَّةٍ تتوزعُ بدورها على مُستوى الأنا والآخر ، لتُشكِّل في النهايةِ قيمة المُثل والسُّلوكيات التي يجب التعامل معها بعد إزالة ما يضُرّها ، وكُلُّ مَحاور

المُتقابلات تدورُ حول الظُّلمِ الذي مثل بؤرةً حيويَّةً في السُّلَّم الحِجاجي ، ولبيان ذلك نجد أنَّ إفشاء الأسرارِ للآخرين وعدم الصَّبر عند الجزعِ والإستمرار باليأسِ كُلَّها سُلوكياتٌ تخُص ظُلم الأنا لنفسها إذا ما حاولتْ التعديل في مُجرياتِ حياتها والتَّخلُّص منها ، وفي الطَّرفِ المُقابلِ نجد أنَّ قطعَ حبلَ المَودةِ مع الصديقِ ومُحاولة خِيانة الأخ ومُمارسة الظُّلم بصورةٍ عامةٍ هي سُلوكياتٌ تخُص تعامُل الأنا مع الآخر ، وفي النتيجة يبقى الظُّلْمُ سيداً عليهما وهو الرَّابطُ الأكبر ، لهذا يُقدِّم الشاعرُ مجموعةً من الحُججِ التي تدخل في بابِ المُثل لجعل المُتلقي على مَقربةٍ من الإشاراتِ الدلاليَّةِ التي تنتُج عنها ، لأنَّ " مُراعاةَ المقام تُساعدُ على تحقيق القُدرةِ الإقناعيَّة للخِطابِ الحِجاجي " (بوخشة ، خديجة – ٢٠١٠ – ٥٢)، وتبلورَ الإستدلالُ بالحُجج عبر حركيَّةِ الرَّوابط اللُّغويَّةِ الحِجاجيَّة من جهة ، والتَّقابُل الدِّلالي في مُستواه التداولي من جهةٍ أُخرى ، لتُوازي هذه الثُّنائيَّة بحركيتها ثُنائيَّة المُتقابلات الخاصة بالأنا والآخر ، فقد عملَ الرَّابطُ الحِجاجيُّ عبر أداةِ الشرط (إذا) على الدُّخول في حيِّز مشروع الأنا والآخر بالتتابُع ، ففي قوله : إذا ضاقَ صَدرُ المَرءِ ... فَفي صَدري ، وإذا فاتَ شَيءٌ فَاصطَبِر) تمثيلُ لفلسفةِ الأنا ، في حين أنَّ قوله : (إذا صاحِبا وَصلٍ بِحَبلٍ تَجاذَبا ... فَمُلَّ قُواهُ) هو تمثيلُ لفلسفةِ الآخر ، أمَّا ما يتصلُ بالتقابُل الدِّلالي فقد اتضحَ من خلالِ الإتكاءِ على السببِ والنتيجة ، واستبان ذلك في قوله : (وَلا تَحفِرَن بِئراً تُريدُ أَخاً ... فَإِنَّكَ فيها تَقَع ، وَكُلُّ امرىءٍ ظالِماً ... تُصِبهُ عواقِبُ ما صَنَع) ، فهنا تمثيلُ لفلسفةِ الآخر الواقع تحت سطوةِ تأثير الأنا ، إلاَّ انَّه تأثيرٌ مُنقطعٌ بدلالةِ أزمنةِ الفعل والعاملِ الحِجاجي القائمِ على التكرار ؛ فالأنا اتكأت على زمن الماضي (ضاق ، فات ، تجاذبا) ، والتكرار اشتغلَ على مساحة الأنا لا الآخر (صدر ، صدري ، سرُّ ، سرِّي ، فات ، فاتك ، حبل ، حبل) ، وهذا يعني أنَّ الإستدلالَ الحِجاجيَّ دُفع لبرهنةِ فلسفة الطَّرفين المُتقابلين للخروجِ بنتيجةٍ مَفادها أنَّ الظُّلمَ باشكالهِ المُتعدِّدة شيءٌ غير مُستحسن ، وهو طريقٌ لتعزيز أرصدة قِيم المُثل لدى الأشخاص الرَّاغبين بتغيير مفاهيمهم الحياتيَّة بعد التيقُّن بأفقِ التجديد والتحسين نحو الأفضل ، وهذا يُدلِّل على " أنَّ الإستدلالَ الحِجاجيَّ راسخٌ في الخِطاب الفلسفيِّ الذي يقومُ على أرضيَّةِ الحِوار والجدل ، وأنَّ السِّمةَ الحِجاجيَّةَ فيه مُفتضحةٌ بعلاماتٍ قابلةٍ للتحليلِ والدِّراسة " . (نصيرة ، لوصيف – ٢٠١٥ – ١٣).

وفي إطارِ حِكمة الرِّجال وصِدقهم وأمانتهم طالعنا الشاعرُ النِّمر بن تولب بمقطَّعةٍ صغيرةٍ ضمَّنها خبرتهُ الحياتيَّة وفلسفتهُ الذاتيَّة في التعامل مع الآخرين في ضوءِ العاداتِ والقِيم والمُثل الحَميدة ، واتضح ذلك في قوله : (العكلي ، النمر بن تولب – ٧٤)

لا يَعلَمُ اللامِعاتُ اللامِحاتُ ضُحىً ما تَحتَ كَشحي وَلا يَعلَمنَ أَسراري

وَلا أَخونُ اِبنَ عَمّي في حَليلَتِهِ وَلا البَعيدُ نَوىً عَنّى وَلا جاري

حَـتّـى يُـقـالَ إذا وُرّيتُ فـي جَدثي لـقَـد مَضـى نَـمِـرٌ عارٍ مِنَ العارِ

ينطلقُ الشاعرُ هنا من جدليَّةِ اعتزاز الذاتِ بنفسها ؛ لجعل خِطابهُ الفلسفي في مَرمى تشكيل الإستدلال الحِجاجي الذي سيحملُ ضمانات الإقناعِ والتأثير ، فالذاتُ تتعاملُ على صَعيد الثباتِ والإنتماء معاً ؛ فهي ثابتةٌ في رؤاها الخاصة التي لا تسمحُ للآخر بكشفِ أسرارها ومعرفةِ خبايها ، لأن " مَن كتمَ سِرَّهُ كان الخيارُ له ، ومن أفشى سِرَّهُ كان الخيارُ عليه " (بن منقذ ، أسامة – ١٩٨٧– ٢٣٩) ؛ وفي المُقابل هي تعتزُّ بالإنتماء الإجتماعي الذي يفرضُ عليها مسؤوليَّةَ احترام خصوصيَّة الآخر سواء أكان قريباً أو غريباً أو جاراً ولاسيما ذم صِفة الخِيانة التي هي " خلقٌ مكروهٌ من جميعِ النَّاس ، يثلمُ الجاه ويقطعُ وجُوه المعايش " (الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر – ١٩٨٩– ٣١) ؛ ولكي لا يكون مُساءلاً عمَّا بدرَ منه في حياتهِ راحَ يُؤسس لهذهِ الفلسفةِ عبر حشدِ خِطابه بحُججٍ مُقنعةٍ كفيلةٍ بجعل المُتلقي يُسلِّمُ بها ويُحاول الإبتعاد عنها قدر الإمكان ؛ وقد جاءتْ الحُججُ مُتلاحمةً بسبب الرَّوابط والعوامل الحِجاجيَّة ، وتمثل ذلك بالرَّابط (الواو وحتى) من خلال (وَلا يَعلَمنَ ، وَلا أَخونُ ، وَلا البَعيدُ ، حَتّى يُقالَ) ؛ فضلاً عن أزمنة الفعلِ بصيغتها المُضارعة التي تدلُّ على الحركيَّةِ والإستمرار لتتناسب واستمرار الفعل الإنساني في حمايةِ النَّاسِ وعدم التَّعرُّض لخصوصياتهم في كُلِّ وقتٍ وحين ، إلى جانبِ العاملِ الحِجاجيِّ الذي تحرَّك بفعل الجِناس بين (اللامِعاتُ اللامِحاتُ) والتكرار (لا يَعلَمُ ، وَلا يَعلَمنَ ، عار ، العار) ، كُل هذا التشابُك في التوظيفِ الأسلوبيِّ يجعل الفلسفةَ الحِجاجيَّةَ بطابعها الإجتماعي تتأرجحُ بين الإستدلال والبُرهان ، فمماتهُ وما يَطرأُ عليه من كلامٍ يُؤذيه بسبب الخِصال المُعلنةِ في الإستدلال هو برهانٌ على احترامِ الذاتِ لنفسها بدلالة انَّها تُفكرُ بالكلام الذي سيأتيها لاحقاً على الرغم من عدم إحساسها المُباشر بذلك ، بل هي ذاتٌ تُفكرُ بالخلودِ المبنيِّ على السُّمعةِ الطيبةِ والمُعاشرةِ الحسنة ؛ فعدم إفشائهِ السِّر للآخرين يُعدُّ طريقاً سليماً لكي لا يكون في مَرمى سِهامهم ويُصبحُ رخيصاً بينهم ، واحترامهُ للآخر وعدم خيانته بأيِّ شكلٍ من الأشكالِ يُمثلُ حَصانة من السُّقوطِ في هُوَّةِ الذَّمِّ والتقليل من الشأن .

الخَاتِمةُ

تتأصَّلُ البرامجُ والأهدافُ وتُصبحُ مُثيرةً في سَاحتِها عنْدما تكونُ الخَطواتُ المُتَّبعةُ فيها خاضعةً لسلْسلةٍ مُتواليةٍ من الإشتراطاتِ والمَفاهيم ؛ بُغية الوصولِ في النِّهايةِ إلى جُملةٍ مِن النتائج التي تعكسُ مُعطيات تلك البرامج ، لذا شخَّصنا مجموعةً مِنها وهي كالآتي :

١ – تمتَّعَ شُعراءُ الصَّحابة بنمطٍ فلسفيٍّ خَاص ؛ تجسَّدَ بالخبراتِ الحياتيَّةِ والتَّراكُماتِ المعرفيَّةِ التي تدخلُ في حيزِ الفلسفةِ الذاتيَّة ، لا ذلك النمطُ المُتعارف عليه في التَّياراتِ الفلسفيَّةِ الباحثةِ عن الحَقائِقِ والماورائيَّات وغيرها .

٢ – اتخذوا من الحُججِ وسيلةً لإنجاح مَقاصدهم ورؤاهم ، فبفضْلها استطاعوا تشكيلَ أُطرٍ جديدةٍ للمَفاهيمِ تُعاكسُ تلك التي قَبعتِ ردحاً من الزَّمنِ في ذهنيَّةِ المُتلقين .

٣ – نشروا بوساطةِ الحُجج ثقافتهم الذاتيَّةِ وتعاليمهم الإجتماعيَّةِ المُستندةِ إلى حقائِق الدِّينِ الإسلامي ، فلولا تلك الحُجج لمَا استطاعوا تأسيسَ نواة لفلسفتهم الفكريَّة وتعميمها .

٤ – شكَّلَ حِجاجُ التَّبرير سُلطةً توجيهيَّةً نفذَ من خِلالها الشُّعراءُ لتأديةِ برامجِهم على النَّحوِ الذي أرادوا لها النَّجاح .

٥ – كانَ لِحجاجِ المُقدِّمات ومُراعاةِ السياقاتِ المَقاميَّةِ والسُّلطةِ دورُ كَبيرُ في رفدِ المعاني والدِّلالات التي أراد الشُّعراءُ حُضورها في نُصوصِهم ، إذ عَملتْ كحُزمةِ مُعالجاتٍ آنيَّةٍ لتفسير المُستغلقِ وتقديم الصَّالحِ القابلِ للتأثيرِ والبقاء .

٦ – خَدمَ حِجاجُ الاستشهادِ بنوعيهِ الإستشهاد بالقُرآنِ الكريمِ والمُثل عبرَ العاداتِ والتقاليد وغيرها خطابَ الشُّعراء ؛ مِن حيث تعضيد المُوضوعاتِ بالأدلَّةِ والاستدلالِ الخِطابي .

٧ – قدَّمَ الاستشهادُ بالقُرآنِ الكريمِ والمُثل فرصةَ الاعتزازِ بإرثِ الأُمةِ الماضي وربطهِ مع الحاضر ، فَضلاً عن الإفادةِ من تلاقُح النُّصوصِ في تعزيز الفِكرِ الفلسفيِّ وتحديد مَساراته .

ثبت المصادرُ

أولاً: الكتب

- الانصاري ، حسان بن ثابت الأنصاري – عبدأ مهنّا – ١٩٩٤ – ديوان – ط/٢ – بيروت – دار الكتب العلمية .
- الانصاري ، كعب بن مالك – دراسة وتحقيق الدكتور سامي مكي العاني – ١٤١٧ هـ ١٩٩٧م – ديوان – ط/٢ – بيروت – لبنان – عالم الكتب .
- البستاني ، بشرى – ٢٠١٢ – التداولية في البحث اللغوي والنقدي – ط / ١ – لندن – مؤسسة السياب للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة .
- بن منقذ ، أسامة – تحقيق محمد أحمد شاكر – ١٩٨٧ – لباب الآداب – ط/١ – القاهرة – مكتبة السنة – الدار السلفية للنشر والعلم .
- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر – ١٩٨٩– تهذيب الأخلاق – ط/١ –الصحابة للتراث
- الحباشة ، صابر – ٢٠٠٨ التداولية والحِجاج مدخل ونصوص – ط/١ – سورية – دمشق – صفحات للدراسات والنشر .
- الدؤلي ، أبي الأسود – صنعة أبي سعيد الحسن السكري – تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين – ١٩٩٨ – ديوان – ط/٢ – بيروت – دار ومكتبة الهلال .
- رواحة ، عبد الله بن رواحة – تحقيق د. وليد قصاب – ١٩٨٢ – ديوان– الرياض – دار العلوم .
- الشبعان ، د.علي – ٢٠٠٨ – الحِجاج بين المنوال والمثال . د.ط.
- الشيا ، محمد شفيق – ٢٠٠٩ – في الأدب الفلسفي – ط/١ – بيروت – مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع .
- صليبا ، جميل – ١٩٩٥ – تاريخ الفلسفة العربية – ط /٣ – بيروت – الشركة العالمية للكتاب .
- العامري ، لبيد بن ربيعة العامري – حققه الدكتور احسان عباس – ١٩٦٢ – شرح ديوان – وزارة الاعلام بدولة الكويت .
- العسقلاني ، الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر – ٢٠١٢– الإصابة في تمييز الصحابة – ط / ١ – بيروت – المكتبة العصرية .
- العكلي ، النمر بن تولب – جمع وشرح وتحقيق الدكتور محمد نبيل طريفي – ٢٠٠٠ – ديوان – ط/١ – بيروت – دار صادر .

❖ القريشي التيمي ، خليفة رسول الله (ص) أبي بكر الصديق عبد الله بن أبي قُحافة – حققه وعلّق حواشيه وقدّم له د. عمر الطباع – ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩م – ديوانه ، سيرته وشعره – ط/١ – دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر .

ثانياً: الرسائلُ والأطاريح

❖ بوخشة ، خديجة – ٢٠١٠ – الروابط الحجاجية في شعر أي الطيب المتنبي مقاربة تداولية – خديجة بوخشة – رسالة ماجستير – إشراف أ.د. عبد الحليم بن عيسى – كلية الآداب واللغات والفنوان – جامعة وهران – الجزائر .

❖ حمدان ، سليم – ٢٠٠٩ – أشكال التواصل في التراث البلاغي العربي – دراسة في ضوء اللسانيات التداولية – رسالة ماجستير – إشراف د.محمد بو عمامة – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة الحاج لخضر باتنة – الجزائر .

❖ الحيالي ، مها مهدي وحيد – ٢٠٠٩ – ظاهرة المقطعات في شعر صدر الاسلام – رسالة ماجستير – كلية الآداب – الجامعة الإسلامية – بغداد .

❖ رحيمة ، شيتر – ٢٠٠٩ – تداولية النص الشعري – جمهرة أشعار العرب نموذجا – شيتر رحيمة – أطروحة دكتوراه – إشراف أ.د. عبد القادر دامخي – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة الحاج لخضر باتنة – الجزائر .

❖ نصيرة ، لوصيف – ٢٠١٥ – البنية الحجاجية في الشعر العربي المعاصر – قصيدة (متى يعلنون وفاة العرب) للشاعر نزار قباني – رسالة ماجستير – إشراف أ.د. حمبلي فاتح – كلية الآداب واللغات – جامعة العربي بن مهيدي (أم البواقي) .